الفصل السابع

كامل الشناوى صحفياً

« على الرغم من أن كامل الشناوى كان كاتبا شيق الأسلوب، إلا أن أسلوبه فى الحياة، النكتة الحلوة أو المرة هو الذى كان يفتح أمامه كل الأبواب على مختلف المستويات »

حافظ محمود

obeikan.com

ارتبط كامل الشناوى بالصحافة منذ مطالع شبابه، حيث كان أول عمله بالصحافة فى صحيفة «كوكب الشرق» سنة ١٩٣٠ ثم عمل مع الدكتور طه حسين فى صحيفة «الوادى» ثم اشتغل محررا بصحيفة «الأهرام» كان يكتب فى مجلات «آخر الساعة» و«الاثنين» و«المصور» حتى جاءت سنة ١٩٤٣ فترأس تحرير مجلة «آخر الساعة».

وفى سنة ١٩٤٥ انتقل من صحيفة «الأهرام» إلى صحيفة «أخبار اليوم» فترأس تحرير آخر ساعة بعد تنازل الكاتب الكبير محمد التابعى عنها إلى الأخوين مصطفى وعلى أمين فى أخبار اليوم .

ولكن كامل الشناوى بطبيعته القلقة غير المستقرة ترك أخبار اليوم بعد حوالى أربع سنوات ليترأس تحرير «الجريدة المسائية» سنة ١٩٤٩، ولكنه يعود إلى صحيفة الأهرام مرة أخرى سنة ١٩٥٠ ليعمل رئيسا لقسم الأخبار بها، ولكنه يتركها سنة ١٩٥٢ ليعمل رئيسا لتحرير صحيفة «الأخبار» وفى سنة ١٩٥٥ ترك صحيفة «الأخبار» ليتولى رئاسة تحرير صحيفة «الجمهورية» التى شهدت خواطره وكتاباته وتأملاته فى سنواته الأخيرة.

وكانت خبرته الصحفية فى عالم الصحافة المصرية على مدى أكثر من ثلاثين عاما خبرة طويلة وعميقة وحافلة مليئة بالخبايا والأسرار والأزمات والنجاحات كان خلالها كامل الشناوى شخصية مؤثرة عميقة لم تمنعه رومانسيته وشاعريته الحالمة من أن يكون صحفيا ناجحا بكل المقاييس.

وحول تجربته يذكر حافظ محمود أن كامل الشناوى استطاع أثناء عمله بالأهرام فى هذه المدة القصيرة أن يصبح كل شئ فى الصفحة البرلمانية، ثم استطاع أن يغدو عميدا للمندوبين البرلمانيين فى مجلس النواب، واستطاع من خلال هذا العمل الصحفى أن ينشئ لنفسه جسورا من الصداقات الحميمة مع الزعماء وكبار السياسيين فى مختلف الأحزاب.

كان صيته قد بدأ ينتشر فى كل الأوساط، ودخل الشاب السمين الذى يرتدى أحدث الملابس الأفرنجية القصور، وجالس الوزراء ورؤساء الوزارات. وأصبح صديقا لصاحب القبضة الحديدية محمد محمود باشا.

وهنا يذكر لكامل الشناوى أنه كان شديد الحساسية لكرامته واعتزازه بشعره ومواقفه السياسية، فكما كان صديقاً حميماً لشاعر أحمد شوقى وكان مثله الأعلى فى مدرسة الشعر، إلا أنه اختلف معه فى الرأى وانضم إلى العقاد فى موقفه من مدرسة «أبوللو» أيضا نرى الشاعر والصحفى كامل الشناوى الذى أصبح صديقا لمحمد محمود باشا زعيم الدستوريين، لا يمدح فى شعره أو مقالاته ذلك الحاكم بأمره، والقصيدة الوحيدة التى قالها فى مدح زعيم، كانت فى مصطفى النحاس باشا بالرغم من أنه لم يكن صديقا له وعندما سئل عن السبب قال كامل الشناوى: «كل ما هناك أنه يستحق شعرى وإذا كانت الصداقة لرئيس الوزراء فالشعر يجب أن يكون لزعيم الأغلبية».

وعندما يعلم جبرائيل تقلا باشا صاحب الأهرام أن كامل الشناوى يسهر كل ليلة مع صديقه محمد محمود باشا، يخبط كفا بكف ويصرخ فى وجهه: «وماذا تفعل بهذه الصداقة.. حاول أن تحصل منه على الأخبار أولا بأول».

ويخرج من مكتب تقلا باشا إلى سراى محمد محمود، وفى مجالس

الوزراء والزعماء لا يكون الحديث دردشة أو دعابات فقط، فالذين يصنعون الأخبار والقرارت، يضطرون فى حياتهم وسهراتهم العادية إلى الدردشة فى الأسرار، وهى الكنز الذى كان يبحث عنه كامل الشناوى الصحفى، ويلتقط من خلال الدردشة خبرا هاما، أن أمين عثمان سوف يسافر إلى القدس ليجتمع مع أحد المسئولين البريطانيين، وأن مفاوضات على مستوى عال ستدور بينهما بعيدا عن أعين الصحفيين ورقابة الشعب!

ويسرع كامل الشناوى إلى الجريدة ومعه الخبر، ويعيد تقلا باشا صياغة الخبر، وينشره منسوبا إلى مراسل الأهرام فى القدس، ويحدث الخبر هزة عنيفة فى كل الأوساط السياسية والشعبية، ويتلقى كامل التهنئة، ويرتفع مرتبه بضعة جنيهات، وينال مكافأة ضخمة، أكدت عزمه الذى استقر أخيرا على أن يتحول بكل طاقته إلى احتراف مهنة المتاعب والقلق... الصحافة...

ويدرك محمد محمود بذكائه وخبرته، أن الشاب كامل الشناوى المحرر بالأهرام وصديقه وجليسه هو مصدر الخبر، فلا يفاتحه فى الأمر إلى أن تأتى جولة أخرى يلقنه فيها درسا لا ينساه.

ذات مساء وفى سراى محمد محمود وكامل الشناوى ينصت باهتمام، يعلن رئيس الوزراء أمامه خبرا، أن جوبلزوزير الدعاية فى حكومة هتلر وصل إلى مصر سرا ونزل بفندق سميراميس، وأنه التقى بمحمد محمود، ودارت بينهما أحاديث خطيرة، ويستأذن كامل الشناوى فى الانصراف مسرعا إلى الأهرام.. ويدخل إلى مكتب تقلا باشا يزف إليه الخبر الخطير!

ويرفع رئيس التحرير المدرب سماعة التليفون ويتصل بفندق سميراميس، ثم بجميع الفنادق التى يحتمل أن ينزل فيها الوزير الألمانى،

واتصل بالمطار وبرجال السياسة، وبكل مكان له علاقة بوصول جوبلز، ولكن الجميع يؤكدون أن الخبر كاذب، ويضطر تقلا باشا قبيل الفجر الاتصال بمحمد محمود باشا، وما أن يسمع رئيس الوزراء صوته حتى ينفجر ضاحكا ثم أنهى المحادثة بكلمة ظلت ترن فى أذن كامل الشناوى «عشان تتعلم الفرق بين الصداقة والصحافة» وفعلا تعلم كامل الكثير من هذا الدرس، أن يكون حذرا، حتى أصبح الحذر من أبرز صفاته الصحفية.

وحدث أن كتب كامل الشناوى خبرا عن اعتكاف عبد العزيز فهمى باشا فى داره بسبب مرضه، فسأله أنطون الجميل: «هل أستأذنت عبد العزيز فهمى باشا فى نشر الخبر؟».

قال كامل: أنا واثق من صحة الخبر.

وقال أنطون: هذا خبر شخصى، فلا ينبغى نشره إلا بعد استئذان صاحبه، فقد يتسبب عن نشر الخبر أن يزوره أصدقاؤه فى داره وهو غير مستعد لاستقبالهم وربما أزعجته هذه الزيارات وضاعفت آلامه.

كان أنطون الجميل يؤثر الأخلاق الممتازة على الكفاءة، وكان يقول لكامل الشناوى «أن الصحافة تتطلب من الصحفى عقل فليسوف، وقلب شاعر، وضمير قاض، ولا مانع ـ بعد ذلك ـ أن يكون الصحفى صاحب قلم».

ويقول كامل الشناوى رأيه فى رائد مدرسة الأهرام الصحفية إبان الثلاثينيات: «كان أنطون الجميل رئيس التحرير يحب الشعر والأمثال والاستشهاد بالكلمات المأثورة، وكثيرا ماكان يبدأ مقالاته بحكمة معروفة أو أسطورة قديمة، ويتخلل المقال بيتان أو ثلاثة من الشعر العربى أو ترجمة لبيت من الشعر الفرنسى، أو مثل أو حكمة صينية، وكان يتأنق فى اختيار اللفظ والفكرة والمعنى وكان إذا تناول موضوعا سياسيا، عرض وجهات النظر المختلفة بدقة وأمانة، وترك للقارئ أن يختار ما يشاء

مكتفيا بأن يعرف بوجهات النظر على اختلافها».

ويقول كامل الشناوى: «لم تكن الصحافة عند أنطون الجميل سبقا صحفيا، وإنما دقة وأمانة وحرص على تجنب الإثارة والتهييج، وكان يتلقى الخبر الهام فيبقيه عنده حتى يتحراه، ثم يقارن بين ما يترتب على نشره فإذا كان النشر يتعارض مع المصلحة العامة، امتنع عن نشر الخبر مهما تكن أهميته، وكان يكره العنف فى المناقشة والحدة فى الجدل، كثير الاعتداد بكرامته وكرامة الأهرام، فلا يزج بنفسه ولا بالأهرام فى خلافات سياسية أو طائفية أو مذهبية ولا ينشر خبرا عن إنسان إلا بعد استئذان».

وتعلم كامل الشناوى دروسا كثيرة فى صحافة مدرسة الأهرام، دروسا فى الكتابة الصحفية.ودروسا فى التعامل مع المصادر، وكما أخذ عن الأهرام فقد أعطاها أيضا، كتب الخبر والتحقيق والمقالة والدراسات الأدبية، وقدم سلسلة من الأحاديث الصحفية التى أثارت ضجة حولها، وأجرى الحديث الشهير مع أحمد لطفى السيد الذى قال فيه أستاذ الجيل: «أنه فى الساعات الأخيرة من حياته سوف يزرع شجرة» وكان قد بلغ من العمر نحو ثمانين عاما.

وفى عام ١٩٣٨ أصبح مصطفى أمين رئيسا لتحرير آخر ساعة، فاختار كامل محررآ سياسيا لها بجانب عمله بالأهرام، وفى عام ١٩٤٢ كان مصطفى أمين رئيسا لتحرير مجلة الاثنين فخصه بكتابة عامود أسبوعى «سمعتهم يقولون» بجانب كتابته للمقالات فى مجلة المصور، وفى عام ١٩٤٤ اختاره مصطفى أمين رئيسا لتحرير آخر ساعة، وبعد صدور أخبار اليوم كان يعد من ألمع كتابها.

ثم عين رئيسا لتحرير الجريدة المسائية عام ١٩٤٩ ولكن حزب الوفد قرر إغلاقها رغم توزيعها ونجاحها الواسع لأنها كسبت معظم القراء من

البلاغ وهى جريدة وفدية ومسائية أيضا، ولأن كامل الشناوى لم يكن وفديا ثم عاد إلى الأهرام رئيساً لقسم الأخبار ثم تركها عام ١٩٥٢ وعمل رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية وفى ديسمبر عام ١٩٦٢ عين رئيسا لتحرير جريدة الأخبار وظل بها حتى وفاته وكانت آخر عهده فى عالم الصحافة.

* * *

كانت قفزاته فى عالم الصحافة تدهش أقرانه وتثير حسد من تخلف عن سباقه فمن مجرد مصحح بلا أجر فى «كوكب الشرق» عام ١٩٣٠، إلى رئاسة تحرير «آخر ساعة» عام ١٩٤٣م.

كانت موهبته كشاعر لامع ومحدث ظريف تطغى على استعداده الصحفى، بل إن شاعريته وظرفه كانا مفتاح أبواب الصحافة والمجتمعات، وتخاطفه أصحاب الصحف، فكان يختار المكان الذى يروقه، والمنبر الصحفى الذى تتوفر فيه حرية الرأى والنشر، وكان يحدد الأجر الذى يفى بمتطلبات بذخه وإسرافه، رغم أنه منذ أصبح رئيسا للتحرير كان يعطى بعض وقته للعمل ومعظم أوقاته للناس. وكان يتكلم أكثر مما يكتب، وكان يعمل ويكتب وسط مريديه وحوارييه الذين لم يكن ينقطع سيل تدفقهم على مكتبه، ويستنفد معظم دخله فى ولائم العشاء التى كان يدعو إليها العاملين معه والمترددين عليه وعرف عن صينية عشاء كامل الشناوى الكثير من الطرائف، فكانت تصحبه من دار صحفية إلى دار أخرى، وكانت تمتلئ بما لذ وطاب من صنوف الطعام والكباب والأسماك.

كانت مشكلته الوحيدة أنه يكتب فى الساعات التى يريد أن يكتب فيها بينما كانت الصحافة تطلب منه أن يكتب فى الساعة واللحظة التى تحددها له.

يقول مصطفى أمين: «كنت دائم الخلاف مع كامل الشناوى، لأنه قليل

الانتاج، فقد كانت المقالة التى لاتزيد عن عامود، تستغرق منه عدة أيام، وكنت أدهش لأنه راوية ومحدث ومبدع فى الحياة ووسط الناس، وكثيرا ما فكرت فى أن أستأجر له شخصا يمشى معه ويسجل ما يقوله وأنشره موقعا بامضاء كامل الشناوى».

لم يتعلم كامل الشناوى الصحافة فى المعاهد المتخصصة فى الصحافة، ولكنه تعلمها فى مدرسة الممارسة والتجربة، وقد ظل تلميذا فى هذه المدرسة حتى النهاية وكان يصف نفسه بالهواية الصحفية، ومما لا شك فيه أن قراءاته اللامنهجية فى دار الكتب وتكوينه الثقافى العصامى فى صدر شبابه قد أفاده كثيرا فى عمله وعلاقاته بمصادره الصحفية.

كان أساس ثقافته الفلسفة وعلم النفس والسياسة ومختلف الفنون والآداب العالمية، وجميع ما أنتجه الفكر العربى منذ العصر الجاهلى، وكان يحفظ آلاف الأبيات للشعراء القدامى والمحدثين، وكانت له ذاكرة أشبه بجهاز التسجيل، لكن كامل الشناوى لم يتوقف عند مرحلة وضع الأساس لثقافته فكان يتردد على المكتبات لاقتناء كل جديد فى الفكر، وكان يهضم قراءاته لها ثم يقدمها أو يعلق عليه وظل بنيانه الثقافى مفتوح النوافذ على كل الاتجاهات والأفكار والتيارات، وكان أصدق مصادر الأخبار الهامة لأنه كان صديقا لصناع الأحداث، وكان هو صانع بعضها.

كان كامل الشناوى يجمع فى شخصه وفكره وقلمه بين جيل رائد للصحافة الحديث والجيل الذى دخل عتبات الصحافة صغيرا ولمع مع التطور، الأول كان قاعدة بناء والثانى كان سند البناء، وهو مع الاثنين عنصر مزج وإدماج ومحور التقاء، ومركز إشعاع، شاعرا لامعا بين الشعراء وصحفيا من أبرزهم وأكثرهم نفوذا وكان أيضا فنانا بين الأوساط الفنية، وكانت رسالته أن يطلق شرارة الاندماج سواء بين الأجيال أو بين العناصر

المتجانسة في كل ميدان.

ولم يكن الطريق ممهدا أمام كامل الشناوى الصحفى ولكنه تمكن بذكائه وثقافته أن يستفيد من رسالته وتجاربه فى الصحافة، وأن يتخطى العقبات الواحدة تلو الأخرى دون أن يكرر نفس الخطأ الذى تعرض له من قبل.

يقول: «فى عام ١٩٣٥ كنت محررافى روز اليوسف، لم يكن لى عمل محدد، أحيانا أساهم فى تحرير الصفحة الأدبية وصفحة الشباب، وأحيانا أكتب التعليقات الساخرة الخفيفة. وأحيانا أحرر باب «من أدب القرآن» وهو باب كنا نستغله فى معارضة الحزب الذى كانت الجريدة تنتمى إليه دون أن نقول أننا معارضون. فمثلا كان رئيس الحزب يدافع عن وجهة نظر الوزراء فى إرجاء إعادة الدستور فننشر أقواله ونضعها فى إطار نكتب فى صدره هذه الآية الكريمة «استغفر لهم أولا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم».

وكنت إلى ذلك الحين، لا أكتب مقالات تحمل اسمى، كنت أدخر ظهور الاسم لأكتب موضوعا جديدا أو حديثا فيه شيء جديد، وفكرت.. فكرت أن أنشر عدة أحاديث مع بعض رجال السياسة اللامعين، واخترت للحديث الأول «حافظ رمضان باشا» رئيس الحزب، وكان إنسان ذكيا، واسع الثقافة والأدب والتاريخ وبرلمانيا خطيرا.

وذهبت إليه فى بيته ووجهت إليه أسئلتى، ودونت إجابته بأمانة ودقة. حمل أوراق الحديث إلى الأستاذ محمود عزمى والفرحة تكاد تقفز على ملامحى، فقد استطعت أن أفعل شيئا، وإذا برئيس التحرير يقول لى: «هذا مقال بقلم حافظ رمضان وليس حديثا صحفيا، أنا أريد حديثا يقوم على الحركة. والأخذ والجذب بينك وبين حافظ رمضان باشا ووصفا لتلقيه السؤال وكيف يبدو وهو يجيب عليه، ثم فتح محمود عزمى درج

المكتب ورمى فيه بالأوراق، وخرجت من عنده وأنا أجرجر قدمى من الإحساس بالفشل وفكرت أن أتراجع عن مهنة الصحافة، وألا أجرب حظى مرة أخرى مع الأحاديث الصحفية، ولكنى جمعت كل قلبى وعقلى وتأملت خطوط ملاحظات رئيس التحرير، وفكرت فى ضرورة البدء على هداها فى إعداد حديث صحفى خطير، وفعلا حققت بإرادتى هذه التجربة مرة أخرى، وعاودت الحديث مع حافظ رمضان باشا وكتبت حديثه مرة ثانية ونجحت إلى الدرجة التى كان محمود عزمى يدرس أحاديثى الصحفية على طلبة معهد الصحافة آنذاك، وكان الفارق بين أن أتراجع وبين إقدامى على التجربة، هو أننى عرفت لماذا فشلت، ودفعنى إحساسى بالفشل إلى إعادة التجربة».

ولأنه أشهر من أجاد الاحاديث الصحفية وكتابتها، فقد استجاب له الرئيس جمال عبد الناصر وخصه بأول حديث له فى الصحافة العربية والأجنبية على مدى أربع ساعات متصلة، وقد تناول الحوار بينهما الاتحاد القومى والوضع الاقتصادى والاجتماعى ومصير المعتقلين السياسيين، وتمكن من أن يعرف منه الكثير من الأخبار وتوقعات المستقبل.

* * *

وحول تجربة كامل الشناوى الصحفية باعتباره أحد عمالقة الصحافة يسترجع الكاتب الصحفى الكبير حافظ محمود بعض ذكرياته عن كامل الشناوى إنسانا وأديبا وصحفيا كبيرا، فيقول[1]:

«كانت بيننا على عهد الصبا الباكر مناقشات حادة غير جادة حول سؤال عجيب هو: «أيهما أكثر ضخامة بين فتيان الحى: أهو ابن الشاعر الهراوى أم ابن الشيخ الشناوى.. لقد ظللنا مختلفين فى هذا الأمر حتى

(١) حافظ محمود، عمالقة الصحافة/ كتاب الهلال/ ١٩٧٤.

سمعنا بنكتة حافظ إبراهيم عن ابن زميله الشاعر محمد الهراوى حين قال له: «يامحمد أنا شفت النهاردة دار الكتب جنب الولد ابنك» وبهذه النكته ضاعت زعامة الضخامة بين فتيان الحى من كامل الشناوى وكأن القدر قد أراد أن يزيل عنه تهمة البدانة الثقيلة، فإذا به يشق طريقه فى الحياة وثبا وكان من بين الخطوط الاستراتيجية التى وصل إليها الخط الأول فى عالم الظرفاء.

لقد كان هناك شئ يحز فى نفس كامل الشناوى وهو يافع، أن فتيان الحى يلبسون الثياب الأوروبية الحديثة وهو وحده المطلوب منه أن يرتدى زى الشيوخ لكى يكون عالما من علماء الدين كأبيه وأعمامه.

عالج كامل الشناوى هذه الأزمة فى نفسه بالشعر.فاكتشف أنه شاعر.. لكن من الذى كان يصدق أن هذا الفتى ابن الخامسة عشرة من عمره يقول شعرا من عنده.. لقد كان فتيان الحى يتهمونه بأنه ينسب شعر الغير لنفسه، وانتهى الجدال حول هذا الموضوع بتحكيم الشاعر الأزهرى المعروف الشيخ محمد الأسمر الذى شهد لكامل شهادتين: شهادة بأن هذا الشعر من عنده وشهادة بأن شعره من النوع الجيد.

واصطحب محمد الأسمر كامل الشناوى إلى أمير الشعراء شوقى ليطلعه على هذه الخامة الجديدة فى إمارة شعره.. وأعجب شوقى بالفتى كامل الشناوى وفتح له صدره وهو يشكو المصير الذى يرى أنه غيرمستعد له اذا استمر فى دراسته الأزهرية، وكان لابد من حيلة تنجى كاملا من غضب «أصحاب الفضيلة» من أهله إذا وقفوا على سر فراره من صحن الأزهر.. وتكفل أمير الشعراء شوقى بهذه الحيلة.

اصطحب شوقى كاملا إلى صديقه عوض «بك» صاحب جريدة كوكب الشرق، واتفق على تشغيله مصححا بهذه الجريدة.. وكانت السن قد مالت

بكامل الشناوى نحو الثامنة عشرة من عمره.. وأصبح رجلا يكفل نفسه فلا يستطيع أحد من أهله أن يعترض على فكاكه من الدراسة فى الأزهر، وذهب فتيان الحى بكامل هيئتهم إلى بدروم دار جريدة كوكب الشرق لتهنئته بهذا «المنصب» وهناك التقينا بكامل «أفندى» الشناوى وهو جالس وراء مكتبه يصحح تجارب المطبعة وهى عملية بدت لنا إذ ذ ك بحق وكأنها تصريف لكبريات الأمور.. وهناك أحس الفتيان أن زميلهم الذى كان يتأخر عنهم خطوة قد سبقهم إلى ميدان الحياة بخطوة، وخرجوا من عند كامل وهم يقولون: أن أرشق فتيان الحى لم يعد قادرا على أن يسبقه!

كان العمل الذى بدأ به كامل الشناوى فى الصحافة، وهو التصحيح، عملا «روتينيا» صعبا.. ثم جاءت الفرصة لكى يظهر مواهبه وفى مقدمتها خفة ظله..فقد كان يتولى أعمال سكرتيرية التحرير فى جريدة كوكب الشرق رجل ممن كانوا يسمونهم أعيان الريف، لا هو بالصحفى ولا هو بالأديب.. لكن العمل السياسى الوطنى قد هيأ له هذه الوظيفة ليؤدى بها واجبا حزبيا.. وذات يوم وفد على مصر زائر كبير هو ملك الأفغان، وكانت أنهار الصحف تفيض بأنباء تنقلاته فى القاهرة مع ملك مصر.. وكان لزاما أن يذكر إسما الملكين بلقب صاحبى الجلالة - مرة تكون الجملة «صاحبا الجلالة» ومرة تكون الجملة «صاحبى الجلالة».

لم يعجب هذا الخلاف فى سياق الحديث الرجل الصيب سكرتير التحرير، فكان يصحح عبارات المندوبين بأن يجعل العبارة كلها إما «صاحبا الجلالة» وإما «صاحبى الجلالة» كما كان يتراءى له، وكانت تجارب الأخبار تصل إلى يد كامل الشناوى المصحح فيعيد تصحيحها حسب قواعد اللغة، ويرى سكرتير التحرير هذا التصحيح على تصحيحه فيغضب وينادى كاملا ليقول له: «أهى لعبة استغماية بيننا فكلما اكتبها»

صاحبا» تصححها «صاحبى» وكلما أكتبها «صاحبى» تصححها «صاحبا»؟!.

وكتم كامل ضحكته، وأخذ الموضوع برمته إلى الدكتور طه حسين الذى كان قد عين فى هذه الأثناء مديرا لسياسة «كوكب الشرق» وأخذ يقصه عليه بحركات الظرف التى اشتهر بها كامل من بعد، فإذا بطه حسين يضحك من قلبه ويقرب كاملا إليه، ثم ينقله بلا أية مقدمات من قسم التصحيح إلى وظيفة المحرر المنتدب بمكتب مدير سياسة الجريدة وكانت هذه بداية لمعان كامل الشناوى الصحفى..

لقد اشتهر كامل الشناوى عند كبار الكتاب قبل أن ينال أية شهرة عند عامة القراء.. فلما أنشئت جريدة «روز اليوسف» اليومية فى سنة ١٩٣٤ ودعى العقاد ليكون كاتبها الرئيسى اشترط أن يكون إلى جانبه الصحفى الشاب كامل الشناوى... وبدأ توقيع «كامل الشناوى» يظهر لأول مرة على مقالات يومية من حجم نصف العمود على صفحات «روز اليوسف» اليومية قال أنطون لكامل: «لا تحزن يابنى.. بجوار غرفتى بالأهرام غرفة صغيرة لك أن ترابط بها منذ الآن حتى ندبر لك عملا».

لكن.. ماذا كان كامل فاعلا بهذه الغرفة الضيقة، لقد كان كامل يقضى معظم وقته بغرفة أنطون، فإذا حاول الانصراف استبقاه أنطون وجلساؤه للتزود من ظرفه وظل عاما أو يزيد إلى أن أعيد تشكيل مجلس النواب فاذا بأنطون يكلف كاملا بأن يصحب مندوب الأهرام البرلمانى الذى يصف جلسات المجلس وما كادت تمضى بضعة شهور حتى طلب المندوب البرلمانى القديم اختصاصا آخر فى العمل، فقد كان كامل الشناوى قد استطاع فى هذه الفترة القصيرة أن يصبح كل شئ فى الصفحة البرلمانية بجريدة الأهرام، ثم استطاع أن يغدو عميد المندوبين البرلمانيين فى شرفة الصحافة بمجلس النواب.

* * *

استطاع كامل الشناوى عن طريق هذا العمل الصحفى أن ينشئ لنفسه من الصداقات مع الكبراء ما عز على الكثيرين من أبناء جيله فى الصحافة لقد كان جليسا لمحمد محمود زعيم الدستوريين وصديقا حميما لشقيقه حفنى محمود، وكان فى نفس الوقت صديقا لمكرم عبيد ولمن خلف مكرم عبيد فى سكرتارية حزب الأغلبية، ثم كان فى نفس الوقت صديقا لخصوم هؤلاء جميعا فى السياسة.

وليس من شك أن صداقات كامل الشناوى قد تفوقت على كفاءته الصحفية فيما كان يوكل إليه من المهام وفجأة دعى مندوب الأهرام كامل الشناوى لكى يرأس تحرير الجريدة «المسائية» الجديدة التى أنشأها بعض أقطاب الوفد وهكذا وثب كامل الشناوى إلى الصفوف الأولى فى مهنته وأصبح من رؤساء التحرير المعدودين.

وعلى الرغم من أن كاملا كان قد انتزع انتزاعا من «الأهرام» فان «الأهرام» رحبت بعودته إليها حين توقفت الجريدة المسائية عن الظهور وقد عاد إليها هذه المرة وهو من رؤساء التحرير.

وعلى الرغم من أن كاملا كان كاتبا شيق الأسلوب إلا أن أسلوبه فى الحياة أسلوب النكتة الحلوة أو المرة هو الذى كان يفتح أمامه كل الأبواب على مختلف المستويات، بما فيها باب البرلمان.. لقد انتخب كامل الشناوى عضوا فى مجلس النواب سنة ١٩٤٥.. وكان لهذا الانتخاب قصة:

ففى أخريات سنة ١٩٤٤، تولى الحكم الدكتور أحمد ماهر، وكانت هذه أول مرة يتولى فيها رئاسة الوزراء أحد المنشقين على الوفد وكانت مناسبة أقام لها رئيس الوزراء أحمد ماهر حفلة ساهرة فى بيته أحيتها أم كلثوم.. وحضرها الملك.. وكان الملك قد سمع بنكت كامل الشناوى فلما علم بوجوده فى هذه الحفلة طلب أن يسمع منه شيئا.. ولما علم الملك أن

هناك اتجاها إلى ترشيح كامل لعضوية مجلس النواب أمر بأن يكون ترشيحه فى دائرة الزعفران وهى دائرة كان الملك فيها يملك الأرض ومن عليها ونجح كامل الشناوى نجاحا ساحقا.

ولما وقع الاختيار فى سنة ١٩٥١ على عشرين صحفيا للإنعام عليهم بالرتب كان كامل واحدا منهم.. وكانت لكامل نكته طريفة فى يوم تلقيبه بلقب البكوية فقد ذهب يومئذ كعادته اليومية إلى مقهى الأنجلو، وهناك التقى بجلسائه المعتادين جلوسا بمدخل المقهى، فإذا به يقول لهم: «وسع يا أفندى أنت وهو لسعادة البيه».

بعد هذا بعام واحد قامت الثورة وكامل الشناوى من رؤساء التحرير بدار «أخبار اليوم» فإذا به من أكثر الصحفيين تفهما لإرادة التغيير وإذا به من الصحفيين القدامى الذين لم يشملهم التغيير بالتغيير.. بل لقد دعى كامل لأن يكون أحد رؤساء التحرير فى أول جريدة يومية أنشأتها الثورة، وهى جريدة «الجمهورية».

ثم يتساءل حافظ محمود:[1] «كيف كسب كامل الشناوى كل هذه المواقع»؟..

نظلمه إذا قلنا أنه كان يكسب كل هذه المواقع بظرفه الذى جعل الذين يتعلقون به أكثر من الذين ينفرون منه.

ونظلم الحقيقة إذا قلنا أن براعة أسلوبه كانت وحدها سر نجاحه لقد كانت فى كامل خاصية تغطى حتى على سيئاته، هى قدرته على إثارة اهتمام من يرغب فى إثارة اهتمامه.. وكما كان يقدر على إثاره اهتمام القراء بأسلوبه نثرا وشعرا ـ كذلك كان يقدر على إثارة اهتمام من يملكون زمام الأمور.. كان يعرف ما هى النقطة التى تثير اهتمامهم ليحركها تحريكا بارعا.

(١) حافظ محمود/ عمالقة الصحافة.

ذات مرة، وكان هذا منذ ثلاثين عاما، وقع خلاف شديد بين توفيق دياب وعبد القادر حمزة... وانتقل هذا الخلاف من القضايا العامة إلى مسائل شخصية ذات حساسية خاصة أزعجت أصدقاء الطرفين إلى درجة تشكيل لجان من هؤلاء الأصدقاء للإصلاح بينهما بلا جدوى.. التقط كامل الشناوى الخيط من هذا الفشل وحوله بطريقته إلى نجاح*.

كان كامل أقدر الناس على تقليد أصوات الناس وبصورة من صوت توفيق دياب تحدث تليفونيا إلى عبد القادر حمزة، وكانت كل من هاتين المحادثتين تفيض رقة وودا من أحدهما إلى الآخر.. حتى لقد بكى توفيق دياب وهو يستمع إلى حديث عبد القادر حمزة المزعوم فى التليفون تأثرا بما فيه من تسامح وحنان... فكانت المحادثة التالية بصوت توفيق دياب، حقيقية إلى عبد القادر حمزة، وهو يصب فى أذنى صاحبه أحاديث الصفاء على نحو أزال هذا الجفاء، وقضى على مشكلة هزت الأوساط الصحفية جميعا.. ومن أن جميع الأطراف قد علمت فيما بعد بأن هذا كله كان من صنع كامل الشناوى، إلا أن الصلح كان قد تم بين الصحفيين الكبيرين فلم يعدلا عنه، وحفظت الأوساط الصحفية الكبرى لكامل الشناوى هذا الجميل الذى زاده اختلاطا بمن هم أكبر منه.

لقد لمست هذه الموهبة الشناوية مرة أخرى منذ سنوات قليلة حين بدأ المرحوم صلاح سالم يتولى الإشراف على دار جريدة «الجمهورية» حينئذ، وفى جلسة خاصة مع صلاح سالم سمعته يتحدث متوجساً عن كامل الشناوى، وربما كان هذا التوجس هو الذى حدا به إلى التفكير فى اسم ضخم يوضح فوق أسماء رؤساء تحرير الجريدة ـ التقط كامل الشناوى هذا الخيط فإذا به هو الذى يخاطب الدكتور طه حسين فى هذا الأمر.. وما هى إلا بضعة أشهر حتى غدا كامل الشناوى كل شئ عند صلاح سالم.

* حافظ محمود: عمالقة الصحافة: القاهرة ١٩٧٤.

كانت هذه الموهبة تحول أخطاء كامل الشناوى إلى صواب وتحول عداءاته إلى صدقات.. وكانت هذه الصداقات هى رأسماله الأول، إن لم يكن رأسماله الوحيد.

ومع هذا كله فقد كان كامل الشناوى شاعر الدموع كان يبدو فى خلواته وكأنه دمعة كبيرة قد تحولت إلى إنسان.. يعذبه نبوغه.. يعذبه شعره يعذبه حبه..!

كانت اهتماماته وسهراته الاجتماعية تطغى على قدراته الأدبية وكان قلبه أكبر من حبه، وعقله أكبر من قلبه.. كان فى معركة داخلية بين ما هو كائن وما كان يتمنى أن يكون... لكن هذه المعركة قد خلقت منه فنانا يخالط الفنانين ويحبهم ويحبونه أكثر من حبه لزملائه وحب زملائه له!.

كان كامل الشناوى طيفا ضخم الحجم لكن هذه الضخامة لم تحمه من أن يمر بهذه الدنيا، وبكل ما فيها مرورا سريعا كمر النسيم، فلا تكاد تستطيع أن تحدد مكانه من التاريخ الفكرى المعاصر.. هل كان صحفيا... هل كان أديبا... هل كان فنانا.. هل كان هذا كله؟ لقد كان كل شئ فى هذا كله.. لكنه لم يكسب من هذا كله إلا الحرمان فى حياة حافلة بالأخذ والعطاء... ولله فى خلقه شئون!.

* * *

ولما كان كامل الشناوى متعدد المواهب والملكات، فقد كان أديبا وشاعرا وكاتبا صحفيا وأحد ظرفاء العصر المعدودين، فقد أصبح ظاهرة فريدة فى دنيا الأدب والصحافة والفن فى مصر لعدة عقود استطاع خلالها أن يفرض موهبته الأدبية وعبقريته وأن يكون أحد أبرز صانعى نجوم الأدب والفن فى مصر فى تلك الحقبة الثرية المفعمة بالإبداع والابتكار والفن الأصيل.

ولذلك لن يكون عجيبا أن يتناوله محمود السعدنى كأحد ظرفاء العصر بجانب مواهبه الأخرى العديدة، حيث قال عنه[1]:

«كان كامل الشناوى رجلا فريدا بين الرجال.. أعداؤه يكرهونه على طول الخط.. والسبب.. كامل الشناوى نفسه»..

فهو إذا أحب، أحب بلا قيد ولا شرط، وإذا كره، كره بلا قيد ولا شرط، وهو مثل القائد الحاسم، إذا هاجم، دمر هدفه تماما، وإذا انسحب، مضى لا يلوى على شئ.

* * *

وعلاقته بأى إنسان تحددها صفات هذا الإنسان نفسه، فإذا كان إنسانا وسطا.. فكامل يكرهه: «فليس أبغض على قلبى من الشئ الوسط ويستوى عندى نصف الأمى، ونصف المتعلم»!.

وهو لهذا السبب نراه يعشق الأذكياء والأغبياء معا.. ويكره الذين يهتازون بنصف ذكاء والذين يتمتعون بنصف غباوة.. ولكن - وهنا العجب - نرى كامل الشناوى لا ينطبق هذا المذهب على سلوكه هو نفسه فى الحياة.. مثلا، أنه يعشق الحرية ويناضل فى سبيلها ولكن نصف نضال وهو ينشد العدل ويدافع من أجله ولكن نصف دفاع وهو يحمى المواهب ويحتضن أصحابها، ولكن أيضا نصف حماية، ونصف احتضان...

ولابد أن يكون وراء هذا السلوك سر من الأسرار.. ربما كان السر عقدا نفسية تراكمت بمرور الزمن على نفس الصبى الصغير الذى خرج من السيدة زينب ومن بيئته يحكمها ويتحكم فيها سلطان الدين، ليتربع هذا الصبى الصغير آخر الأمر على رأس المجتمع، يبهره ويدهشه ويشترك فى توجيه مصيره، وصنع أحداثه لفترة طويلة من الزمان.

(١) محمود السعدنى، الظرفاء.

ولقد بدأ كامل الشناوى حياته طالبا فى الأزهر، ثم ما لبث أن هجر الدراسة فيه كافرا بالمناهج العقيمة، وبالعلوم الجامدة التى انفصلت عن عصرنا عشرات القرون، وبالجهل النشيط الذى كان ميزة بعض علماء الأزهر فى تلك الأيام، وخرج كامل إلى الحياة ينشد البحث عن شئ يحن إليه ويحبه، عن الشعر عن الفن عن الموسيقى عن الغناء وبمعنى آخر، خرج ينشد البحث عن الحياة فنراه ينضم إلى جمعية للشعراء، ثم يذهب إلى حافظ محمود ليتعلم منه فن الخطابة والإلقاء، ثم يبعث إلى جريدة الأهرام بين الحين والحين بقصيدة من نظمه، ولكن القليل من هذه القصائد كان يرى النور، أما الغالبية العظمى فكان يجد طريقه بسهولة... إلى سلة المهملات.

* * *

ومن طرائف الشناوى.. كان المشرف على الصفحة الأدبية فى الأهرام ممن يطربون للألفاظ الغريبة الميتة «كجلمود صخر.. وأشياء من هذا النوع ولم يكن يستسيغ أبدا هذه المعانى الجديدة، ولا هذه الرقة التى أخذت تسيل من شعر شبان ذلك الجيل!.

وفكر كامل فى وسيلة ليقنع بها الأستاذ المشرف على الصفحة بأن شعره يستحق النشر، ووجد الوسيلة أخيرا فى «مقلب» فيه كل الاحتجاج، وكل السخط وكل الثورة التى تعتمل فى نفس كامل، وفيه قبل هذا وبعد هذا.. فن جميل.

ومن هنا، ستظل «المقالب» من هذا هى النوع هى هواية كامل الشناوى، وطريقته المثلى فى التعبير عن رأيه بصراحة فى الأشخاص والأحداث.

ونفذ كامل الشناوى «المقلب».. كتب قصيدة من نوع:

سلاما صاحبا لا يعم ولا يجرى

ولا ألما بهـا نفـسى ولا تدرى

وهات يا شعر من هذا النوع الذى يعجب الأستاذ المشرف على الصفحة، ثم ذيل القصيدة بإمضاء شاعر مشهور كانت له شنة فى تلك الأيام، وطوى القصيدة، وبعث بها الأهرام، ونشرت الأهرام القصيدة، وكانت فضيحة.

* * *

وهكذا أيضا دخل كامل الشناوى الأهرام، محررا بها، ثم مشرفا على الصفحة.

وكان صيته قد بدأ رغم حداثة سنه ينتشر فى كل الأوساط، ودخل الشاب السمين الأسمر الذى يحفظ الشعر ويقرضه، ويقول النكتة ويجيد حبك المقالب ويقلد الأصوات والحركات، دخل القصور، وجالس الوزراء ورؤساء الوزراء، وأصبح صديقا لصاحب القبضة الحديدية... محمد محمود.

وتمضى الأيام بكامل الشناوى إلى الأمام، وهو ينتقل من نصر إلى نصر، وشهرته تطبق الآفاق، وصيته يدوى كالطبل، والمال ينهال عليه كما تنهال المياه من جوف القرب ويتبخر من بين أصابعه بأسرع مما يأتى وهو يحب المال ويطلبه ويسعى فى سبيله، ولكنه يحبه ـ كما يقول أوسكار وايلد ـ كالجنتلمان ـ يحبه لينفقه، ويقبض عليه ليتركه يسيل من بين أصابعه!.

ويلتقى كامل بوجوه كثيرة، وأصناف شتى من الناس وأنواع مختلفة من النفوس، وألوان لا حصر لها، عباقرة وأغنياء وزراء وصعاليك فنانون وأدعياء، أصحاب مواهب وأصحاب سلطة، أصدقاء وأعداء، وكامل الشناوى يتفرج ويتأمل ويضحك، ولكنه أبدا... صديق للجميع، ولكن، كيف

يجد القدرة فى نفسه على أن يظل صديقا للجميع، وهو الفنان الذى ينفعل ويضطرب ويتألم ويصرخ أحيانا فى شعره وفى فنه صراخا رهيبا عنيفا سيظل يدوى أبد الدهر فى سمع الوجود.

لا أحد يدرى؟

ذات مرة سأله محمود السعدنى بصراحة جارحة:

ـ كيف تستطيع أن تتافق كل هؤلاء الناس؟

ويبدو أن السؤال كان قاسيا على قلب الشيخ الذى بلغ الخمسين فقال وهو يكبت فى نفسه غضبا ثائرا:

ـ تعودت أن أجامل الناس، وما تسميه أنت نفاقا، أسميه أنا مجاملة.

وفى سبيل هذه المجاملة ترزح نفس كامل الشناوى تحت أثقال من العذاب!.

ويقول السعدنى:

«ومن أبرز صفاته أنه يستطيع أن يشم رائحة موهبة على بعد ألف ميل، وهو لا يشمها فقط ولكنه يسعى إليها، ويجذبها نحوه، ويجاهد فى سبيل أن يدفع بها خطوات واسعة إلى الأمام... وإذا كان مكتب الشناوى صالونا يلتقى فيه كل مساء رجال الأدب ورجال الفكر، ورجال الفن، ورجال العلم، ورجال فقط، وأشباه رجال، فباب كامل الشناوى طريق للمواهب الصغيرة إلى المجد والشهرة، وإذا كان وراء كل عظيم امرأة فوراء كل فنان شاب كامل الشناوى وراء الأدعياء أيضا وراءهم بلسانه ونكاته وقفشاته..

ولقد ذكرت من قبل أن كامل الشناوى اختار لنفسه طريقا وسطا فى الحياة.. ينشد العدل ويدافع فى سبيله ولكنه نصف دفاع ويناضل من أجل الحرية... ولكن نصف نضال.. ومن أجل هذا أيضا خاض كامل الشناوى غمار كل المعارك التى خاضها الشعب، ولكنه لم يدخل السجن أبدا، فقد

كان يخوض المعارك عندما يكون الجو مناسبا للقتال، حتى إذا هبت العاصفة آثر كامل أن ينحنى لها حتى تمر، فإذا انقضت عاد كامل مرة أخرى إلى النضال.

ولعل هذا راجع إلى ذكاء كامل الشناوى، وهو ذكاء من فصيلة «الذكاء العام» للشعب.

* * *

وكما يعشق كامل الشناوى الأدب والفن، فإنه يعشق الليل، الحياة عنده تبدأ عندما يبدأ الظلام، ولا يأوى كامل إلى فراشه إلا عند الفجر، والمؤكد أنه يكره الوحدة، ولديه قدرة عجيبة على العمل وسط مائة إنسان وفى جو صاخب عاصف، وهو يبدو دائما هاربا من شئ فى نفسه، وطاقته المبدعة يفرزها قليلا فى الكتابة، وكثيرا فى الكلام، أنه يعشق الكلام أيضا، وهو أسعد ما يكون عندما يتكلم فى الأدب، وأنت تحس عندما تسمع كامل ينشد الشعر أنه يضيف إلى القصيدة معانى جديدة لم تكن تحس بها من قبل ولكن هذا الولع الشديد بحب الكلام والذى أمتع الآلاف وأسعدهم قضى على كامل الشناوى كأديب، إذ أنه لم ينتج أدبا على ورق، وكل روائع كامل وآثاره الخالدة كانت طلقات فى الهواء.

وأعجب ما فى كامل أنه وهو الذى يقدر النكتة ويعشقها ويضعها أحيانا فوق كل اعتبار، يفزع من النكتة ويرهبها إذا كانت مصوبة إليه صحيح أنه يحب النكتة، ويطرب لها، ويضحك من أعماقه عليها، على شرط أن يكون هو قائلها، وفى جلسة مريحة وبين أصدقاء أعزاء، ولكنه يخاصم النكتة ويكرهها إذا كانت ضده، إذا كانت تعنيه أن موقفه منها كموقفه من المعارك، يخوضها إذا كانت لا تقضى عليه.

ومهما يكن الأمر، فقد ذاق كامل الشناوى كل ألوان الحياة، ذاق خيبة

الأمل ذاق الفشل، وتجرع النجاح ووصل إلى القمة، وربح الألوف، وعاش كالمهراجات، وأنفق كل ما ربح، وعرف عشرات الألوف من الناس، وأحب وتألم وشعر بالرضا، وشعر بالسخط، وكان دائما ثائرا على كل شئ حتى على نفسه، ولكنه استطاع ببراعة وبذكاء أن يسير على حبل الحياة دون أن يسقط وعاش حياته كما اشتهى أن تكون حياته، واختلفت صورته عند الناس، فمنهم من يعده مازحا، ومنهم من يعتبره فناناً وهو عند البعض أديب وعند الآخرين صحفى، ولكنى اعتقد أنه كل هذه الأشياء، وأنه إنسان وإنسان فريد من نوعه، جمع فى نفسه وبين جوانحه كل ما فى الحياة العريضة المتلاطمة، من متناقضات، وببساطة أننى أعتقد أن كامل الشناوى هو الحياة.

وليعذرنى القارئ إذا ضربت صفحا عن نكات كامل الشناوى وقفشاته، فهى شائعة ذائعة على كل لسان، وليعذرنى كامل الشناوى نفسه إذا كنت قد أخطأت، وهذا الذى كتبته ليس تاريخا لحياة كامل الشناوى، وإلا لكنت احتجت إلى مجلد ضخم قد تنتهى صفحاته قبل أن ينتهى الحديث عن كامل الشناوى، ولكنه مجرد انفعال شخصى بأستاذ زاملته حينا، وصاحبته حينا، واتفقت معه حينا، ولكننى أحببته على الدوام*.

* نشر هذا المقال فى حياة كامل الشناوى.